

الحراسة من الانتكاسة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن الإنسان عرضة لتغير الأحوال ما دام حيًّا، والمعصوم من عصمه الله وتفضل عليه بالثبات، ولكن الأمر كما قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». متفق عليه.

وقد دلّ الشرع على أن القلوب تتقلب، وأن الخطأ قد يعقب الصواب، وأن العصمة ليست لبشر غير الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ فعن أنس -رضي الله عنه- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمِنَّا بِكَ وَمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». أخرجه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

وعن عبد الله بن سرجس -رضي الله عنه-، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْتَاءِ السَّفَرِ، وَكَاتِبَةِ الْمُتَقَلِّبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَدَعْوَةِ الْمُظْلُومِ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ، وَالْمَالِ». أخرجه مسلم.

ففي هذين الحديثين دليل على أن الإنسان قد ينحرف عن الجادة السوية بعد وضوح الحجة القوية، وأن التلون في الدين رزية، والانتكاسة في المنهج بليّة، وإلا لما استعاذ من ذلك النبي ﷺ معلّمًا لنا ومحدّثًا من هذا الأمر.

والانتكاسة المستعاذ منها هنا؛ عامة في كل انتقال مما هو خير إلى ما هو شر، سواء في ذلك الانتقال من الإسلام إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية، أو من منهج السلف إلى منهج الجماعات المنحرفة ... الخ.

قال الحافظ الترمذي -رحمه الله- في "الجامع": "إِنَّمَا هُوَ الرُّجُوعُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، إِنَّمَا يَعْنِي مِنَ الرُّجُوعِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ".

ودخل أبو مسعود على حذيفة، فقال: أوصنا يا أبا عبد الله. فقال حذيفة: "أما جاءك اليقين؟". قال: بلى وربي. قال: "فإن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وأن تنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلون! فإن دين الله واحد". الجامع لمعمر بن راشد (٢٤٩/١١).

ومن المقلق أن نرى إخوة عُرفوا بصحة العقيدة وسلامة المنهج يعدلون عما عُرفوا به بين عشية وضحاها، وأصبحوا يزعمون ثوابت منهج السلف، فيمّوهون للشباب الحقائق بتقعيد قواعد تهدف إلى منع الإنكار على المبتدعة والتحذير منهم، تارة بالدفاع عنهم والتعاطف معهم، وتارة بالتحامل على المنكرين عليهم واتهامهم بالغلو والإفراط والغلظة، وربما جرّهم ذلك إلى النيل من مشايخ كانوا يرتضون علمهم ومنهجهم، وإلى تبجيل طوائف وأصحاب مناهج كانوا يذمون طريقتهم، إلى غير ذلك من مظاهر التحول الغريب، والله المستعان.

ولا ريب أن هذا مسلك خطير، فلذا أوصي نفسي وإخواني بتقوى الله عز وجل، والتجرد للحق والبعد عن العاطفة المجردة، وأن يعلموا أن هذا العلم نعمة، ومن شكر الله عليه؛ أن تسخر قلمك للدفاع عن السنّة ومنهج السلف، وأن يتذكروا قول النبي ﷺ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ». أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

كما أوصي أهل السنة - لا سيما الشباب - بالحذر من الاغترار بكل ليسٍ على وسائل التواصل الاجتماعي، وأن يهتموا بتقاريرات المشايخ الكبار الذين ثبتوا على منهج السلف، خصوصا في الأحداث المستجدة، قال الإمام مالك - رحمه الله -: "كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِحَدِيثِهِ؟!". شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١٦٣/١).

وعن إبراهيم النخعي - رحمه الله - قَالَ: "كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّلَوْنَ فِي الدِّينِ" حلية الأولياء (٢٣٣/٤)، وقال - أيضا -: "كَانُوا يَرَوْنَ التَّلَوْنَ فِي الدِّينِ مِنْ شَكِّ الْقُلُوبِ فِي اللَّهِ" الإبانة الكبرى (٥٠٥/٢).

وقال الإمام مالك: "الداء العضال التنقل في الدين". الإبانة الكبرى لابن بطة (٥٠٦/٢).

أَسْأَلُ اللَّهَ - سبحانه وتعالى - أن يهدينا وكل من ضل من المسلمين، وأن يرزقنا الثبات على الحق، وأن يعيذنا من الحور بعد الكور، إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.